قه تيه ينغ (Ge Tieying)*

لمحة عامة عن المخطوطات العربية الإسلامية في الصين

An Overview of the Arabic and Islamic Manuscripts in China

<https://doi.org/10.1515/caas-2021-2006>

تاريخ النشر: 30-8-2021

الملخص: تعتبر المخطوطة من أهم النواقل الثقافية، والمخطوطات العربية الإسلامية على وجه الخصوص. إنها عامل هام ساهم في توثيق وحفظ الثقافة العربية الإسلامية في العصور الوسطى، وتعتبر الوثائق والمخطوطات جزءًا لا يستغنى عنه في الحضارة العربية الإسلامية في الحاضر بما تحتويه من التراث الثقافي والديني واللغوي. يقوم هذا البحث بتسليط الضوء على المخطوطات العربية، والمخطوطات الإسلامية في الصين بشكل خاص، ويعمل على استعراض أهمية هذه المخطوطات في الحضارة العربية الإسلامية، وحتى الحضارة البشرية بأكملها. كما يعمد إلى تلخيص تاريخ هذه المخطوطات وتطورها بشكل مفصل، وتأثيرها في الحضارة العربية الإسلامية المعاصرة. كما يركز الجزء الثاني من البحث على وضع هذه المخطوطات في الصين، واستعراض تاريخها وتطورها في الصين. وخلافًا عن الأساليب الشائعة في البحوث المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية، يلقي هذا البحث نظرة على التفاصيل التاريخية، ويستند إلى التحليلات المنطقية، مما يظهر السحر الفريد لهذه المخطوطات ويبرز أهميتها للحضارة العربية الإسلامية سواء عبر المراحل التاريخية أم في الحاضر.

الكلمات المفتاحية: المخطوطات العربية؛ المخطوطات الإسلامية؛ الحضارة العربية القديمة

Abstract: The manuscript is considered as one of the most important cultural carriers, and Arab-Islamic manuscript is in particular an important factor that contributed to the splendor of Arab-Islamic culture in the Middle Ages, as it is an indispensable part of the Arab-Islamic civilization in the present with its cultural, religious and linguistic heritage. The paper sheds light on the Arabic manuscripts and the Islamic manuscripts in China separately, in order to present the importance of manuscripts in the Arab-Islamic civilization, and even the entire human civilization. The paper also summarizes the history and development of Arab-Islamic manuscripts in detail, and the effects of these manuscripts on contemporary Arab-Islamic civilization. The second part of the paper focuses on

* قه تيه ينغ، جامعة الاقتصاد والتجارة الدولية، بكين، الصين، gaishuang@hotmail.com

Open Access. © 2021 قه تيه ينغ, published by De Gruyter.

This work is licensed under the Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 License.

the status of Islamic manuscripts in China, and offers a review of the history and development of Islamic manuscripts in China. Contrary to the common methods used in research related to Arab-Islamic civilization, the paper takes a look at the details of history, and is based on logical analysis, which shows the unique charm of Arabic-Islamic manuscripts and highlights their importance to the Arab-Islamic civilization, both in the past and at the present.

Keywords: Arabic manuscripts; Islamic manuscripts; ancient Arab civilization

1 المقدمة

”كان عدد الكتب المحفوظة بأية مكتبة عامة أو خاصة في الإمبراطورية العربية، يتجاوز العشرة آلاف نوع، في حين لم يتجاوز عدد الكتب المحفوظة في كل مكتبة أوروبية خمسمائة نوع، في العصور الوسطى.“ (لينيا لينت، 1994) هذا ما قاله الدكتور أوليف إكيمشكين، عميد قسم الشرق الأوسط في مركز الدراسات الاستشرافية بالأكاديمية الروسية للعلوم، عندما تطرق إلى مساهمات العلماء المسلمين في الحضارة البشرية بواسطة ”الكتب“، وقارن الشرق بالغرب مقارنة بسيطة بليغة ومؤثرة. إن الكتب من أهم الحوامل للتاريخ، وإن كلمات هذا الخبير الروسي الشهير المتخصص بالعربية، جعلتنا نفهم بشكل أعمق معنى جملة ”الناس الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية هم الذين حملوا أساسا، شعلة حضارة العالم وثقافته من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر.“ (ليانغ تشاو، 1990) في الواقع، يمكن تقسيم ما نسميه الكتب الإسلامية القديمة إجمالاً إلى نوعين، أحدهما المخطوطات أو الكتابات المنسوخة باليد، والآخر المطبوعات التي تم طبعها بعد تحقيق العلماء المحدثين في الأزمنة الحديثة، وما الأخير إلا جزء ضئيل من السابق. ومما لا شك فيه أن الكتب باللغة العربية تحتل النسبة الأكبر من الكتب الإسلامية القديمة مع أن هناك كتباً بلغات أخرى مثل الفارسية. ويسمى العلماء المحدثون الكتب المكتوبة باللغة العربية الكتب العربية سواء كان كتابها عربياً أم غير عرب. والمخطوطات العربية المشار إليها في هذا المقال، هي المخطوطات المكتوبة باللغة العربية فقط، علماً أن المخطوطات الإسلامية تشمل الكتب المكتوبة باللغات الأخرى. وقد أنجز العالم الإسلامي حوالي خمسة ملايين نوع من المخطوطات من القرن السابع حتى المراحل المختلفة في القرن التاسع عشر بشكل إجمالي حسب الإحصاءات العلمية. ومن ضمنها تم إنجاز ما يقارب نصف مليون نوع في كل من سوريا، مصر، العراق، إسبانيا، إيران، أفغانستان، تركيا ودول آسيا الوسطى. وتم إنتاج حوالي خمس مليون نوع في كل من الجزيرة العربية وشمال إفريقيا والهند. بل بعد أكثر من ألف سنة من التحات التاريخي والتآكل الطبيعي، وبعد حروب عديدة لا تحصى وحملات ”إتلاف الكتب“ المتنوعة، لم يبق إلا 630 ألف نوع من المخطوطات الإسلامية في الوقت الحاضر. ومع الأخذ بعين الاعتبار أن ثلثي المخطوطات الموجودة تضرب جنورها إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن المخطوطات من العصور الوسطى بمعناها الواسع، لا يزيد عددها على 200 ألف نوع.

2 العرب والمخطوطات

رغم أن العرب قد عرفوا واستوعبوا فن الكتابة في العصر الجاهلي وربما قبل ذلك بكثير، ”لكن نشأة ثقافة المخطوطات العربية وازدهارها الحقيقي لم يحدث إلا بعد ظهور الإسلام.“ (لينيا لينت، 1994) حيث أرسى العرب أساساً لثقافتهم المكتوبة في الفترة ما بين 630م و750م، كما أن البعض يعتبر هذه المرحلة منطلق ازدهار

حضارتهم. وقد ألف العرب كثيرا من الكتب الدينية والأدبية والتاريخية في القرن الثامن، وبلغ عدد هذه المؤلفات بضع مئات في القرن التاسع، ولكن للأسف لم يبق من هذه المؤلفات والمخطوطات الآن إلا جزء ضئيل. وأكثر الكتب قراءة ونسحا عند المسلمين، هو القرآن الكريم باعتباره الكتاب المقدس والأهم في الدين الإسلامي. ولا تنحصر أهمية المخطوطات الأولية للقرآن الكريم في الدين فقط، بل تمتد إلى علم اللغة العربية أيضا، ففيه تنعكس عملية تطور فن الكتابة العربية في المراحل التاريخية المختلفة، انعكاسا مباشرا. وقد تعامل الخطاطون مع عملية نسخ القرآن باعتبارها مهمة مقدسة وفائقة الأهمية، أبان نشأة الإسلام، ما أدى إلى كثرة مخطوطات القرآن الكريم حينذاك. وربما لهذا السبب ناقش الفقهاء شرعية بيع المخطوطات المتنوعة وشرائها، بما فيها مخطوطات القرآن. وسمحو بهذا النوع من المعاملات أخيرا، مع الأخذ بعين الاعتبار طلب الجمهور المتزايد على هذه المخطوطات وتزايد عددها وتنوع مضامينها. لذلك، كان بيع المخطوطات وشرائها أمرا عاديا شائعا في أنحاء الإمبراطورية العربية في القرن الثامن وأصبح نشاطا تجاريا مزدهرا لاحقا.

العرب أمة محبة جدا للاستطلاع أصلا، وقد حث الإسلام المسلمين على التعلم والدراسة بعد ظهور الإسلام، كما تكثر التعليمات المتعلقة بهذا الموضوع في السنة النبوية. لذلك أصبح طلب العلم عادة شائعة في أرجاء العالم العربي في ذلك الوقت. وفي هذا الصدد، وصف لنا المؤرخ الصيني الشهير عبد الرحمن نا زونغ، أنه "في المدن الرئيسية الكبرى، خصوصا العاصمة بغداد، ظهرت دكاكين الورق والكتب صفًا وراء صف، وزادت الضجة حينًا بعد حين. وتسابق العلماء إلى المكتبات بحثًا عن الكتب، وانغمسوا في القراءة فيها حتى نسوا العودة، وسهروا الليل في دكاكين الوراقين منهمكين في القراءة" (نا زونغ، 1997) بدون أي ريب أن طلب العرب ورغبتهم في التعلم والإبداع والدراسة جعلت تجارة الكتب أو تجارة المخطوطات أكثر ازدهارا.

لدى العرب ألقاب كثيرة لتجار يبيعون المخطوطات وأدوات الكتابة، مثل "الدلال" (الجامع بين البائع والمشتري)، والسمسار، والكتبي (من يبيع الكتب)، والوراق (الذي يبيع الأوراق). والأخير، أي الوراق يمتلك نطاقًا أوسع وحجمًا أضخم نسبيًا للعمل، فهو ينتج المخطوطات في المعمل الخاص به ويعرضها ويبيعها في متجره، لذا يُعدّ الوراقون أكثر الاختصاصيين حصافة في هذه الحرفة. والجدير بالذكر، أنه من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر، لم تكن متاجر الورق العربية أماكن للتجارة فقط، بل مجمعٌ للشعراء والمؤرخين واللغويين والعلماء والنوابغ في الدوائر العديدة الأخرى. فهم تردّدوا إلى دكاكين الوراقين وطالعوا المخطوطات المستجدة واشتروا ما أعجبهم من الكتب أو كلفوا الوراقين بنسخ المؤلفات، وتعلموا من بعضهم بعضًا وبحثوا في العلوم وتبادلوا الأفكار، الأمر الذي جعل من هذه الدكاكين ما يشبه "الصالونات الأدبية"، بكل معنى الكلمة.

وقد تعزى تسمية موقع "وراق" على الإنترنت، والذي يعد من أشهر المواقع العربية المتخصصة بالمخطوطات، إلى دور الوراقين في الماضي في إنتاج المخطوطات والمساهمة في نشر الثقافة العربية الإسلامية في الماضي.

أُستخدم ورق البردي والرق في المخطوطات الأولية، إلى جانب جلود الغنم والماعز والظباء، من ضمن الموارد الأولية لورق الرق جلود العجول أيضا. وورق الرق لقلة موارده الأولية وغلاء تكلفة إنتاجه لم يُستخدم إلا لنسخ سور القرآن وآياته في مطلع ظهور الإسلام. أما ورق البردي الذي اخترعه قدماء المصريين، فقد بدأ العرب في استخدامه منذ عصر الجاهلية، وظل مستخدما في كتابة الرسائل والوثائق لمانتي سنة بعد ظهور الإسلام. وكان يتمّ بيعه على شكل لفائف، طول كل لفة حوالي 15 مترا، كما يمكن أيضا تقطيعه وفقا لمتطلبات العملاء. وقد تمّ نقل تقنية صناعة الورق الصينية إلى الإمبراطورية العربية في أواسط القرن الثامن، مما أدّى إلى انخفاض تكلفة إنتاج الورق إلى حدّ بعيد وإحداث تغييرات ثورية في الثقافة العربية المكتوبة، وبالأخص، إنتاج المخطوطات وتعميمها، حتى إنّ ذلك ترك تأثيرات هائلة على التطورات المتسارعة للحضارة العربية الإسلامية بأسرها. ومن الجدير بالذكر، أن الوقت الذي استوعب فيه العرب فنّ صناعة الورق الصينية هو نفس الوقت الذي بلغت فيه الدولة العباسية ذروتها وشهد تاريخ العرب خلاله ازدهارا متناميا. فأتى ذلك وبعده "مائة عام من الترجمة" و"العصر الذهبي لخمسمائة عام"، لعب "الورق الصيني" دورًا مهما لا يبدل عنه في خفض التكلفة وتسهيل عملية إنتاجه ونقله ومزاياه الأخرى. فضلا عن ذلك، فقد أدى ظهور الورق الصيني إلى إمكانية إنتاج مخطوطات كبيرة الحجم

ومتعددة المجلدات، مما ترك بصمة عميقة في تاريخ تطور المخطوطات العربية الإسلامية. مع تزايد الطلب على الكتب من قبل العلماء والجمهور، أصبح نسخ المخطوطات وإنتاجها مهنة دارجة. وعلى امتداد مرحلة طويلة، امتحن الخطاطون المحترفون مهنة النسخ، وكان من الصعب على الناس العاديين دخول هذه المهنة. فهي مهنة تحتاج إلى الصبر، وجمال الخط ووضوحه، ولا تعتمد على السرعة حسب. وكان بإمكان الناسخ أن ينجز في اليوم الواحد 160 إلى 210 أسطر من القصائد، أو 50 إلى 100 سطر من النثر. وقد تحقق بعض العلماء من أن متوسط السعر لنسخة واحدة في ذلك الوقت كان ديناراً واحداً، وقال بعض العلماء إن أكثر الكتب شيوعاً يباع بعشرة دراهم (حوالي نصف دينار)، بينما يبيع كتاب عالي الجودة مقابل ما يقرب من 100 درهم. أي أن دخل الناسخ الشهري يبلغ قرابة الدينار الواحد. وقد تمّ توظيف بعض النساخ ذوي الخط الرائع من قبل الحكّام أو الأثرياء المحليين، وقد حصل هؤلاء على رواتب عالية. وأنتج هؤلاء النساخ المهرة مخطوطات قليلة العدد وعالية الجودة لا تباع في السوق.

لاحقاً، أصبح تجليد المخطوطات أكثر روعة، واستُخدمت الزخارف الهندسية المرسومة بالحبر الذهبي أو بالحبر الملون، وكانت الكتب الأكاديمية مصحوبة بمخططات تخطيطية مختلفة. ودائماً ما نرى في المخطوطات من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر مخطوطات تُدعى عادة "منمنم". وهي مرسومة بالنقش أو التتقيط الدقيق، تُستخدم حصرياً لتزيين المخطوطات. وفي هذا الوقت، لم يعد صنع المخطوطات شيئاً يمكن للناسخ القيام به بمفرده، لذلك ظهرت ورش العمل العائلية لصنع وإنتاج المخطوطات واحدة تلو الأخرى. وحدث أن دُون عالم عربي قديم ذات مرة مشهد عملية إنتاج المخطوطات في مؤلفاته: في مكان ما من الإمبراطورية العربية، حيث كانت النساء الأميات يقمن بأعمال النسخ بكل دقة. وهذا فقط جزء من سلسلة الإنتاج العائلي. الوضع العام هو: الزوجة مسؤولة عن عمل "النسخ"، ويرسم الزوج "منمنم"، وتضيف الابنة المخططات الزخرفية للتزيين، وأخيراً يصنع الابن الغطاء ويجلده مما ينتج مجلداً متكاملًا وجميلاً. وتجدر الإشارة إلى أن معظم المساجد في ذلك الوقت وجدت بها المدارس التي ضمت ضمن أروقتها مكتبات خاصة. وسمح الأئمة للناس العاديين بنسخ الكتب المحفوظة وكانوا يقدمون لهم كلّ أدوات الكتابة مجاناً لتشجيعهم على الاهتمام بطلب العلم.

على الرغم من أن القرن السادس عشر قد شهد انحداً في مستوى المخطوطات المختلفة بشكل كبير من منظور الدلالة أو المضمون، إلا أن نقطة التدهور القصوى لفنّ المخطوطات الإسلامية هو انهيار الأسرة الملكية الصفوية (1502-1736)، "أجد أسرة ملكية مسلمة فارسية محلية". (فيليب حتي، 1995) وبعد ذلك، ومع أن مدرسة أصفهان ومدرسة كشمير أعادت إحياء فنّ المخطوطات بعد أن استقر الوضع السياسي قليلاً في نهاية القرن الثامن عشر، فقد تم استبدال المخطوطات الإسلامية تدريجياً عن طريق الكتب المطبوعة آلياً وبخاصة في ظلّ التطور السريع لتكنولوجيا الطباعة وانتشارها في القرن التاسع عشر، وبذلك تحقّق رسالتها التاريخية.

واليوم لا يدخر العرب أي جهد لحماية أحد مواضيع تراثهم الثقافي - المخطوطات القديمة، بل إنهم يشيرون أحياناً إلى هذه المخطوطات على أنها "تراث ثقافي". وفي الوقت نفسه، تبرع أصحاب البصيرة من الدول العربية، وخاصة دول الخليج المنتجة للنفط، بسخاء بأموالهم وكثيراً ما أعادوا شراء المخطوطات النادرة التي تخص شعوبهم بأسعار مرتفعة. تتراوح المخطوطات الإسلامية من بضع صفحات إلى آلاف الصفحات، وبطبيعة الحال فإن ما يسمى بالكتاب البيّتم هو الأعلى، يليه المخطوطات المكتوبة بخط يد المؤلف. أما بالنسبة لمعظم النسخ أو النسخ المقلدة، فيعتمد تقدير قيمتها على شهرة الخطاط، وتاريخ النسخة ومستوى جمال التزيين، وأيضاً جودة الورق والحبر. وبشكل عام، يقدر الباحثون المحتوى الأكاديمي للمخطوطات، أمّا في سوق المزايدات الدولية، فغالباً ما تكون المخطوطات ذات الرسومات الملونة أكثر شيوعاً لدى المشترين. أمّا في الوقت الحاضر، فيعتبر غلاء أسعار المخطوطات الإسلامية القديمة طبيعياً، لأنها لا تتمتع بالقيم الروحية الدينية والأكاديمية فحسب، بل أيضاً تمتلك القيم المادية كالتراث أو الآثار الثقافية. وأحياناً يتجاوز سعر المخطوطة القديمة للقرآن الكريم المجلدة بشكل جميل 300 ألف جنيه إسترليني. وقيل أعوام، باعت دار مزايدات سوثي في لندن، صفحة واحدة من القرآن عثر عليها في إسبانيا وتضرب جذورها إلى بلاد الممالك المصرية والتي تم نسخها باللون الذهبي والأزرق القاتم على ورقة باللون الأزرق الفاتح، بـ 15 ألف جنيه إسترليني. أما الكلاسيكيات الأكاديمية العربية القديمة مثل "القانون في الطب"

الشهير لابن سينا، فقد بيع المجلد الخامس منها فقط مقابل 100 ألف جنيه إسترليني. ولكن دائماً ما توجد "ظاهرة غريبة" في سوق المزايدات الغربية، فكلما عرضت المخطوطات الإسلامية في المزاد، وتواجدت الهيئات العربية للوثائق والكتب أو المشتريين من دول الخليج العربية، فإن الثمن سيرتفع بشكل متزايد، مما يحمل العرب لدفع أسعار عالية تفوق المتوقع لكي يحصلوا على ما كان من تراثهم الثقافي القومي. ولعل هذه الظاهرة ليست غريبة، إذا تذكرنا المخطوطات الإسلامية القديمة التي تعرضت للنهب أو "الاستكشاف السري" أو الشراء بأسعار منخفضة منقطعة النظير من قبل الغربيين. أو إذا تذكرنا الشعب الصيني الذي يشارك الشعوب العربية نفس المصير والتجارب، والذي لا يمكنه الحصول على تراثه التاريخي القومي في سوق المزايدات الدولية إلا بدفع أضعاف السعر المقدر، ومن بين هذا التراث وهذه التحف التي سلبتها قوات الدول الثماني المتحالفة علنياً من حديقة يوان مينغ يوان الملكية... يا للعجب! كم "علا مستوى الحضارة" لبعض الغربيين سابقاً وحالياً!

3 الصين والمخطوطات الإسلامية

حتى الآن، لم يحصل مؤلف هذا المقال بعد على العدد الدقيق للمخطوطات الإسلامية في الصين. الأمة الصينية لديها اتصالات وثيقة مع العرب والفرس والأمم الأخرى عبر التاريخ، وقد تم نقل الإسلام إلى الصين في منتصف القرن السابع، لذلك من المعقول العثور على مخطوطات قديمة لكلاسيكيات دينية مثل القرآن الكريم في الصين. على سبيل المثال، وجدت نسخة من مخطوطات القرآن من القرن الثالث عشر وقامت الإدارة الوطنية الصينية للتراث الثقافي بتخصيص أموال بقيمة 440 ألف يوان صيني لترميمها وإكمالها. وتعتبر هذه المخطوطة من أقدم مخطوطات القرآن الكريم المكتشفة في الصين، ويبلغ مجموع صفحاتها 681 صفحة، وتم جلبها عن طريق آسيا الوسطى حسب ما كشفت عنه مصادر البحث العلمي. بالإضافة إلى ذلك، فقد أقر الباحثون في داخل الصين وخارجها بالإجماع بأن الثقافة العربية، وخاصة في علم الفلك والرياضيات والطب وما إلى ذلك، كان لها تأثير كبير على المجالات ذات الصلة بالصين، لذلك فمن المنطقي أن تكون هناك مخطوطات إسلامية أكثر أهمية في العلوم والثقافة في الصين. في أغسطس 1997، نشرت جريدة "الشرق الأوسط" السعودية مقالاً طويلاً تحت عنوان "الصين لديها كنز من المخطوطات الإسلامية النادرة باللغة العربية"، حيث اقتبست مقولة للسيد ما يونغ فو نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، والذي كان يزور القاهرة في ذلك العام: "وجدنا المخطوطات الإسلامية المتعلقة بالدين والعلوم بمختلف التخصصات في أقبية بعض المساجد القديمة. وهناك عدد كبير من العلماء المسلمين الصينيين يبحثون بشكل خاص في هذه المخطوطات، ويتعاونون في نشرها مع الهيئات العالمية المهتمة بشأن المخطوطات وثروتها الأكاديمية. ومن الجميل أن الكشف فيه عن هذه المخطوطات يأتي في وقت يدرك فيه العالم مرة أخرى أن المسلمين الصينيين ساهموا ويساهمون في رقي الحضارة الإنسانية منذ العصور القديمة. ويستغرق العمل لاستكشاف أي مخطوطة قديمة، وترتيبها، ومراجعتها، والبحث عنها وقتاً طويلاً، فبعد الجهود الدؤوبة التي يبذلها العلماء الصينيون، وخاصة العلماء المسلمين الصينيين، نحن على ثقة بأن النشر الأول لبعض المخطوطات الإسلامية في الصين، سيكون إنجازاً ذا أهمية بالغة في الأوساط الدينية والأكاديمية على حد سواء". (محمود بيومي، 1997) ومن الجدير بالذكر أن تكون المخطوطات الإسلامية الصينية المذكورة آنفاً هي المخطوطات الأصلية القديمة المكتوبة باللغة العربية أو الفارسية، وليست "المخطوطات الصينية التي تتحدث عن الحضارة الإسلامية"، ولا المخطوطات العادية التي يستخدمها المسلمون الصينيون المعاصرون لغرض تعلم اللغة والدين ونشرها، مع أنها كذلك مخطوطات مكتوبة باليد. وفي المقابل، حقق العلماء الصينيون والأجانب إنجازات كثيرة في دراسة الكتب الإسلامية الصينية، وخاصة في البليوغرافيا. ومن المؤسف أن معظم أعمال العلماء الأجانب لم تتم ترجمتها إلى اللغة الصينية ونشرها. على سبيل المثال، "فهرست الكتب الإسلامية الصينية" لإسحاق ميسون (1929) والذي "له قيمة مرجعية عالية، ولكن نظراً لأن الكتاب بأكمله مكتوب باللغة الإنجليزية ولم يُترجم إلى اللغة الصينية، فهو كذلك غير معروف لدى الناس." (وان ياوبين، 1994) وفي الوقت نفسه، هناك أيضاً كتاب لليسلي "تحقيق الكتب الصينية

الإسلامية“ الذي تمت ترجمته إلى الصينية ولكنه لم يتمكن من نشره بسبب نقص التمويل. والجزء الذي يمكن قراءته منه هو الكتاب الذي ترجمه يانج دا بي كما طبعه بنفسه في عام 1994 فهو ليس من المنشورات الرسمية. في الواقع، إن تأليف الفهرست حتى الببليوغرافيا الجامعة أمر ضروري سواء للمخطوطات الإسلامية الصينية أو للمخطوطات الإسلامية الأصلية، وهو حجر الأساس بالنسبة للبحث في هذا الصدد وواحد من المرجعيات الأكاديمية للبحوث المماثلة.

أما بالنسبة لفحص وتصنيف المخطوطات الإسلامية الصينية الأصلية، فإن العلماء الصينيين والأجانب مهتمون بها للغاية أيضاً، وقد نشروا العديد من الكتب والمقالات حول هذا الموضوع، سواء كدراسات أو كجزء من فهرس مخطوطات المسجد أو كملحق في كتابات عن دراسة الإسلام الصيني. وقد قام العالم الإسلامي الشهير ليو تشي من أسرة تشينغ الملكية بإدراج قائمة المراجع الأصلية باللغتين العربية والفارسية في كتابيه الشهيرين. وقد نشر عالم الصينولوجيا الفرنسي الشهير بول بيليوت ذات مرة ورقة “أقدم مخطوطة في الوثائق العربية للصين” (“المجلة الآسيوية”، 1913). في الوقت نفسه، كانت المخطوطات الإسلامية الصينية دائماً موضع تقدير من قبل العلماء العرب. على سبيل المثال، أدرجت “قائمة المخطوطات العربية العالمية”، الصادرة عام 1984 عن المعهد الكويتي للمخطوطات العربية المخطوطات الصينية في المجلد الثاني. وما لفت انتباهنا بشكل خاص هو العالم العربي مظفر بختيار الذي أرسله معهد فولفان لبحوث التراث الإسلامي (لندن) إلى الصين في نهاية القرن الماضي لإجراء الدراسة الميدانية للمخطوطات الإسلامية الصينية. وقد نشر تقريره التحقيقي، كفصل خاص في المجلد الثالث من العدد 38 من “فهرس المخطوطات الإسلامية العالمية”، الذي صدر عن هذه المؤسسة في عام 2001. ويتكون النص الكامل أكثر من 70 صفحة، حوالي 40,000 كلمة.

وتكمن أهمية هذا التقرير أولاً في “الرؤية بأم العين”. فقد زار المؤلف المساجد والمكتبات والمؤسسات ذات الصلة في بكين وشينجيانغ وقانسو ونينغشيا وشاندونغ وشانغهاي وسيتشوان وهانان وغيرها من المقاطعات والبلديات والمناطق ذات الحكم الذاتي في الصين، وسعى جاهداً لرؤية كل المخطوطات المهمة بعينه. على سبيل المثال، أتم زيارته للمكتبة السابقة لقسم اللغات الشرقية بجامعة بكين، كما أتم تقييم وتحليل مخطوطاتها القليلة؛ والأمر الآخر هو مقدمة المؤلف المكونة من 8,000 كلمة، وهي بمثابة أطروحة علمية تتناول المخطوطات الإسلامية الصينية في المستويين الكلي والجزئي: فالمستوى الكلي يتحدث فيه عن سبب صعوبة العثور على مخطوطات مهمة في الصين، والمستوى الجزئي يتحدث فيه عن الخط الصيني والورق المستخدم في المخطوطات واهم جزاً. وبعد قراءة المقدمة، وجدنا خيبة الأمل عند المؤلف من الوضع العام للمخطوطات الإسلامية في الصين. وسيرى القارئ أن أغلب آرائه انتقادية، بعضها موضوعي نسبياً، والبعض الآخر لا، وبعضها مقبول للفهم بسهولة في رأيه ولكن يصعب فهمها بالنسبة إلى الصينيين. على سبيل المثال، فيما يتعلق بكون “الغالبية العظمى من المخطوطات الإسلامية في الصين مكتوبة باللغة الفارسية”، نجد أن المؤلف يشعر بخيبة أمل لكونه عربياً مسلماً، ولكن بالنسبة للمسلمين الصينيين، فلا يهمهم إن كانت المخطوطات القديمة باللغة العربية أو الفارسية، فإن قيمتها بالنسبة لهم تنبع من قدمها ومما تحتويه، بغض النظر عن اللغة التي كتبت بها، لأنها كلها مخطوطات إسلامية. وبالرغم من أن النصوص الأصلية للكلاسيكيات الإسلامية كانت باللغة العربية، إلا أن اللغة الفارسية تلعب دوراً هاماً في انتشار الإسلام في الصين، وذلك لأسباب تاريخية وجغرافية، وكان من المفروض أن يعرفها هذا العالم العربي ويكون مهياً من حيث الفكر قبل قدومه إلى الصين.

وقد تركزت انتقادات المؤلف بشكل أساسي على النقاط التالية:

عدم إجراء دراسة شاملة للمخطوطات الإسلامية في الصين؛ وأن العديد من الأماكن التي يتم فيها حفظ المخطوطات غير معروفة من قبل المسلمين والعلماء غير المسلمين؛ وعدم استطاعة الناس تحديد قيمة وأهمية المخطوطات من الناحية الفنية. غالباً ما يخبئون المخطوطات التي يعتقدون أنها ثمينة ولا يتحدثون عنها مع الآخرين، مما يجعل من الصعب معرفة إن كانت مخطوطات مهمة أم عادية القيمة؛ ثم أن معلوماتهم حول هذه المخطوطات تظل غامضة، مما يؤدي إلى هدر الكثير من وقت الباحثين دون الوصول إلى نتائج. على سبيل المثال، سمع أثناء عملية النقد والبحث أن هناك مخطوطة عربية نادرة جداً في مكتبة خاصة في هاربين. وبعد السفر

الطويل، وجدوا أنها مجرد كتاب لقواعد اللغة الفارسية تمت طباعته في أوائل القرن العشرين. يقسم المؤلف المخطوطات الإسلامية الصينية إلى أربع فئات من خلال التحقيق: (1) الكتب الكلاسيكية حول علم تفسير القرآن وعلم الفقه، عددها محدود ومعظمها مخطوطات مقلدة؛ (2) الكتب المدرسية التقليدية عن القواعد والبلاغة في اللغتين العربية والفارسية، وما زالت مستخدمة في المراكز التعليمية في الدول الإسلامية الأخرى، خصوصاً إيران. ولكن هناك كتاب واحد لم يعد مستخدماً إلا في الصين، وعنوانه هو "مِرَح الأرواح"؛ (3) النصوص الصوفية وهي في الغالب؛ (4) نسخ من كلاسيكيات الأدب الفارسي، والتي يتم إدراجها في الغالب في مركز التربية الإسلامية. كما أشار على وجه التحديد إلى "مقامات" الحريري واعتقد أن "الكتابات العربية لم تحظ بالاهتمام، وإلا فإن عدد المخطوطات يجب أن يكون أكثر بكثير مما هو عليه الآن". (مظفر بختيار، 2001) وفيما يتعلق بهذه التحفة الفنية من الأدب العربي تحديداً، قال البروفسور محمد مكي (ما جيان) ذات مرة في الأربعينيات: "هذه التحفة (إشارة إلى "المقامات") هي كتاب القراءة الأدبي الوحيد في المدارس العربية في الصين. وفي العقود الأخيرة، لم يُسأل حتى عن هذا الكتاب الأدبي الفريد". (دي بويلا، 1946)

يلخص المؤلف أسباب تلف وفقدان المخطوطات الإسلامية الصينية في سببين: الأول حروب أهلية متعددة وفتن أهلية وخلافات طائفية عبر التاريخ، والثاني أن الغربيين في أوائل القرن التاسع عشر استغلوا جهل السكان المحليين للقيام بـ "عمليات السراء" في أماكن مختلفة، لا سيما في المناطق الغربية في الصين.

وعلى الرغم من أن تقرير التحقيق الذي أعده مظفر بختيار، لم ينجح في تقديم الكمية المحددة أو حتى الكمية التقديرية للمخطوطات الإسلامية الصينية، وانشغل بانتقاد وضعها الحالي، إلا أننا بعد كل شيء لا يمكن إنكار أنه قد أضاف الكثير من التفاصيل التي تم التغاضي عنها في المقالات السابقة ذات الصلة، وأن بحثه الجديد كان ذا قيمة مرجعية مهمة. علاوة على ذلك، فإن انتقادات المؤلف واقتراحاته تعزز بلا شك العمل الهام لنا نحن الصينيين في اكتشاف المخطوطات الإسلامية وحفظها ودراستها بشكل أفضل. قال المؤلف في نهاية المقدمة: "الآن، يسعدنا جداً أن نقدم للعالم هذه المقدمة الموجزة للمخطوطات الإسلامية الصينية المفقودة منذ زمن طويل. وعلى الرغم من أننا لا نجرؤ على وصفها بأنها مثالية، إلا أن ما توصلنا إليه هو أفضل النتائج التي يمكننا تقديمها في الظروف الحالية. ونأمل أن يكون بحثنا أساساً لبحت أعمق في هذا المجال المهم في المستقبل. كما نأمل أن نقوم في المستقبل القريب بإجراء دراسات أكثر تفصيلاً بمساعدة معاهد البحوث الصينية والمؤسسات الثقافية ذات الصلة".

أخيراً، مع اندلاع ثورة المعلومات وانتشارها، لا سيما مع ولادة التكنولوجيا الرقمية، فإن مجال البحث في المخطوطات الإسلامية يفتح الباب أمام تغيير تاريخي يقلب التقاليد. منذ عام 2000، ويتمويل قدره 5 ملايين دولار أمريكي من وزير الدفاع الإماراتي حينذاك الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، قام خبراء وفنيون بالعمل الجاد لعدة سنوات حتى دخل موقع إلكتروني باسم "الأزهر أون لاين" حيز التشغيل. ولا تنحصر أهمية هذا الموقع في أنه يسمح للعالم بتصفح وقراءة أكثر من 120 ألف كتاب عربي قديم تم نشرها وطباعتها وحفظها في مكتبة الأزهر فحسب، بل الأهم من ذلك أنه ساهم أيضاً بجمع 42 ألف مخطوطة إسلامية قديمة أصلية من قبل المتحف، بحيث يمكن لأي شخص في العالم، سواء كان باحثاً محترفاً أم شخصاً عادياً، أن يلجأ إلى خدمة الإنترنت العالمية للدراسة والتحقيق في هذه المخطوطات والوثائق الإسلامية التي تصعب رؤيتها عموماً وحتى التمتع بها في أي وقت وفي أي مكان.

تكون المخطوطات العربية موارد مفتوحة مشتركة بين العالم بأسره - هذا الحلم الذي كان من المستحيل تحقيقه في الماضي، والذي كان شيئاً لم نجرؤ على الحلم به، ها هو الآن قد أصبح حقيقة واقعة. ونتيجة لذلك، فإن الموارد والقيم الدينية والأكاديمية والثقافية للحضارة العربية الإسلامية الواردة في المخطوطات العربية الإسلامية سيتم التعرف عليها واستخدامها واستكشافها من قبل المزيد من الناس في العالم. ولعل هذا هو حتمية التطور التاريخي، لأن الحضارة الإسلامية منذ يوم ولادتها لم تقتصر على أمة أو دين، بل كانت دوماً للبشرية جمعاء.

المراجع

- دي بويما، ما جيان (المترجم)، (1946). *تاريخ الفلسفة الإسلامية*. شانغهاي: المطبعة التجارية، ص 84.
- فيليب حتي، ما جيان (المترجم)، (1995). *التاريخ العربي العام: المجلد الثاني*. بكين: المطبعة التجارية، ص 844.
- ليانغ تشاو & ماي يونغ شيونغ & لو تيبينج، (1990). *تاريخ الأدب الشرقي الجديد*. ناننينغ: مطبعة جامعة قوانغشي للمعلمين، ص 552.
- لينيا لينت، (1994/11/18). *المخطوطات الإسلامية: العلم والفنون والجمال*. جريدة الشرق الأوسط.
- محمود بيومي، (1997/08/31). *الصين لديها كنز المخطوطات الإسلامية النادرة باللغة العربية*. جريدة الشرق الأوسط.
- مظفر بختيار، (2001). *المخطوطات الإسلامية الصينية، فهرس المخطوطات الإسلامية العالمية*. لندن: معهد فورقان لبحوث التراث الإسلامي، رقم 38، المجلد 3.
- نا زونغ، (1997). *التاريخ العربي العام: المجلد الأول*. بكين: المطبعة التجارية، ص 591.
- وان ياوبين، (1994). *الموسوعة الإسلامية الصينية*. تشنغدو: دار النشر تسي شو في مقاطعة سيتشوان، ص 748.